الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

من جدلية النّص إلى واقع المصلحة:

كيف تُحلّ الأزمات بـ"امحها يا علي"؟

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

على مفترق طرق في التاريخ الإسلاميّ، وقف الرسول محمد ﷺ مع صحابته في شهر ذي القعدة من السّنة السّادسة للهجرة، في صلح الحديبية أمام منعطف تاريخي في مسيرة الرسالة الإسلاميّة، ففي الوقت الذي أراد فيه الرسول ﷺ كتابة معاهدة الصلح مع كفار قريش، اعترض سفيرهم سهيل بن عمرو على كتابة "محمد رسول اللّٰه"، قائلاً: "واللّٰه لو نعلم أنّك رسول اللّٰه ما صددناك عن البيت، ولكن اكتب محمد بن عبد اللّٰه"، فنطق النبي ﷺ بعبارته الخالدة: "امحها يا علي".

فتلك العبارة ليست أمراً عابراً أو كلاماً ألقي جزافاً لتذروه الرياح في لحظة سعي نحو تفاوض لحظيّ، بل هي نبراس حياة، وتجسيد لفلسفة حياة متكاملة، ونهجٌ للتّعامل مع الآخر، ورؤية إستراتيجيّة تتجاوز المظهر لصون الجوهر، هي عبارة تترجم وتختصر أمداً بأكمله بكلّ ما فيه من أبعادٍ نفسية وروحية عميقة، وفيها خلاصة تجارب إنسانيّة واجتماعيّة وقيميّة خالدة تمسّ حاجة البشريّة في عصر تتصاعد فيه النزاعات وتتدخل فيه المصالح، وينبثق من هذه اللحظة التاريخية بعد نفسي وديني تجلّى في الموقف النبوي، وبعد مجتمعيّ وقيميّ يمكن استلهامه في علاقاتنا الإنسانيّة المعاصرة.

ففي صلح الحديبية كان هناك من النبي ﷺ تجسيد حيّ ومعلن لمفهوم التجرّد من الأنا والذات، فعلى الرّغم من أنّ "رسول اللّٰه" ليست صفة شكليّة وإنّما انعكاس لحقيقة إيمانيّة ثابتة، إلاّ أنّ الحكمة النبويّة ارتأت التّنازل عن إثباتها في وثيقة الصلح في سبيل تحقيق هدف أسمى، وهنا تأكيد لقيمة الانتصار على الذات، وهو أمر أصعب بمراحل من الانتصار على الآخرين، إذ إنّ القائد الحقيقيّ ليس من يهمّه اللقب والصّفة ومظهر السلطة، وإنّما من يتنازل عن هذه الشكليّات في سبيل المصالح العليا، ومن يرى أنّ الألقاب والمظاهر وسيلة لتحقيق المصالح العليا لاغاية في حد ذاتها.

ARAB-PSF.COM

فالدّرس النفسي هنا يكمن في كون القوة الحقيقية تتمثّل في القدرة على التنازل، فمن يملك القدرة على التّنازل عن الشكليات هو الأقوى نفسياً، لكونه يؤمن بأنّ قيمته الحقيقيّة أكبر من مجرّد لقب أو وصف، ولم يقف الأمر عند تنازل النبي ﷺ عن كتابة "رسول اللّٰه"، بل تعدّاه إلى طريقة تعامله مع رفض علي رضي اللّٰه عنه محو الكلمة، إذ قال علي : "واللّٰه لا أمحوها أبداً يا رسول اللّٰه"، وهنا تجلّى الذكاء العاطفي النبوي في أبهى صوره، إذ لم يعنّف النبيّ ﷺ علياً أو يُشعره بالتّقصير، وإنّما قال: "هاتها يا علي" فمحاها، وفي هذا نموذج فريد لاحتواء المشاعر وإدارة المواقف الصعبة، يُظهر مستوى عميقاً من فهم نفسيات الآخرين واحترام مشاعرهم، والمرونة في التعامل مع المواقف الحرجة والقدرة على تفهّم ردود الفعل العاطفية للآخرين واحتوائها دون إلحاق الضّرر النفسيّ بهم.

وفي "امحها يا علي" تجسيد لبعد إيمانيّ عميق يتمثّل في الثّقة المطلقة باللّٰه وتدبيره، فالنّبي ﷺ كان على يقين بأنّه رسول اللّٰه، وإنْ لم يُكتب ذلك في وثيقة الصلح، وما هذا اليقين سوى إثبات أقوى من أيّ إثبات خارجي، وهنا يكمن مفهوم التوكّل العمليّ في أرقى صوره بدءاً من الأخذ بالأسباب من خلال التفاوض وقبول شروط الصلح، وصولاً لتفويض النتائج للّٰه وحده، فالنّبي ﷺ لم يكن ليتنازل من منطلق اليأس أو الضعف، بل كان يتنازل من منطلق القوة والثقة، لكونه يرى الصورة الأكبر التي لا يراها كثير من الصحابة في تلك اللحظة.

ARAB-PSF.COM

وهنا تساؤل عميق: هل التنازل عن المظاهر يعني التنازل عن الجوهر؟

والإجابة النبوية تتصدّر الرّد بوضوح، بأنّ محو كلمة "رسول اللّٰه" من الوثيقة لم يكن محواً لحقيقة الرسالة من الوجود، فهو بذلك يعطينا مثالا على وجوب تمييزنا لثنائيات الثابت والمتغير، والجوهر والمظهر، والحقيقة وتجليّاتها، فالموقف النبوي قد قدّم نموذجاً فريداً في التّمييز بين ما هو ثابت لا يقبل التّغيير ألا وهو حقيقة الرسالة، وما هو متغير قابل للتّفاوض بشأنه ألا وهو كتابة اللقب في وثيقة، وهذا التمييز من أهم ما يميّز الفكر الإسلامي الأصيل إذ يعكس المرونة في الوسائل والثبات على المبادئ، وهذا يعني بالضرورة أنّ الشخصيّة القياديّة وجب أنْ تتحلّى بتوازن نفسيّ وقدرة على الموازنة بين الصلابة والليونة، بين الثبات والتّغيير، بين المثالية والواقعية، وهو ما نفتقده في كثير من الشّخصيّات المعاصرة التي تميل إمّا إلى التشدّد المطلق أو التنازل المطلق.

فنجاح النّبي ﷺ في صلح الحديبيّة، أظهر حكمة عميقة تكمن في معرفة متى نتنازل ومتى نتمسك، وأنْ نميّز الفرق بين التنازل كوسيلة إستراتيجيّة والتنازل كهزيمة نفسية، فقد كان تنازله وسيلة لتحقيق نصر أكبر في المستقبل، لا استسلاماً أو ضعفاً كما قد يبدو للوهلة الأولى.

ولو تناولنا فلسفة "امحها يا علي" من منظور آخر، ووضعناها في سياق إنسانيّ وبعد مجتمعيّ وقيميّ وأسريّ، خارج عن نطاق سيرورته التاريخية، لوجدناها تتسامى عن كونها عبارة تاريخية وحسب، ليصير إلى اعتبارها قاعدة ذهبية في التعامل المجتمعيّ، إذ إنّ الحياة الاجتماعيّة مليئة بالمواقف التي تتطلّب منّا "محو" بعض توقعاتنا وآرائنا في سبيل الحفاظ على روابط أكبر وأهمّ، إذ تكمن قيمة هذه الفلسفة في تحويل مفهوم التنازل من علامة ضعف إلى مؤشر قوة وحكمة، فالمتنازل لأجل المصلحة العامة ليس بالمرء الضعيف، إنّما هو قويّ بما يكفي لتجاوز مصالحه الشّخصية ونزعة الأنا الفرديّة لديه.

ARAB-PSF.COM

فالبعد العميق ها هنا يمسّ الإنسان بكونه كائناً اجتماعياًّ لا يمكنه العيش بمعزل عن الآخرين، فالعلاقات الإنسانية في هذا المنظور تقوم على التوازن بين الأخذ والعطاء، بين التمسك والتنازل، ومن يفتقد القدرة على التنازل المتوازن يفقد معه القدرة على بناء علاقات إنسانيّة ناجحة ومستدامة.

والأسرة على وجه التأكيد هي أول مختبر لتطبيق مبدأ "امحها يا علي"، فكم من خلافات زوجية تفاقمت وانتهت بالانفصال لكون كلا الطرفين قد تمسك بـ "رسول اللّٰه" الخاصّة به - أيْ برأيه ووجهة نظره - ورفض التنازل ولو عن جزء بسيط منها، فلو استلهم الزوجان هذا المبدأ النبوي، لتحولت الحياة الأسرية من ساحة صراع إلى مسكن سكينة ومودة وطمأنينة، فالزواج الناجح ليس اتّحاداً لكاملين، وإنّما تكامل لناقصين يتنازل كلّ منهما عن بعض ما لديه ليكتمل به الآخر؛ (أنت تكمل ما بي من نقص، وأنا أكملك).

فالبعد القيمي هنا يرتبط بكون التنازل المتبادل هو أساس لتحقيق الاستقرار الأسري، فالأسرة التي يسودها مبدأ "امحها يا علي" تنشئ أجيالاً تؤمن بقيم التسامح والتفاهم، لا بثقافة الأنا والصدام، فالأبناء لا يتعلمون بالتلقين وإنّما بالقدوة، وحين يرون الوالدين يتنازل أحدهما للآخر في مواقف معينة، يترسّخ في نفوسهم أنّ التنازل في سبيل استقرار الأسرة قوة لا ضعف.

وعلى المستوى المجتمعي الأوسع من نطاق الأسر، يمكن تطبيق مبدأ "امحها يا علي" في معالجة النزاعات المجتمعيّة والخلافات بين الفئات المختلفة، إذ إنّ المجتمعات المتقدمة ليست تلك التي لا تعرف الخلافات، إنّما من تحسن إدارتها وتحويلها إلى فرص للتقارب والتفاهم، فترى في الاختلاف اتفاقاً وائتلافاً.

وهنا تبرز دور مؤسسات التنشئة المجتمعيّة على اختلافها، في تعزيز ثقافة التسامح الإيجابي الذي ينبع من قوة وحكمة ، لا التسامح السّلبي الذي ينبع من الضعف، إذ إنّ الرؤية المطروحة هنا النظر للمجتمع كجسد واحد، العلة التي تصيب جزءاً منه تؤثر في الجسد كله، ففي مبدأ "امحها يا علي" علاج ناجع لهذه العلل المجتمعية، إذ يحوّل هذا المبدأ نقاط الخلاف إلى مساحات للحوار البنّاء، ويقلل من حدّة الاستقطاب ونزعاته التدميريّة التي تمزق وشائج النسيج المجتمعي.

وفي أبعاد أخرى من زوايا أخرى، تتجاوز "امحها يا علي" البعد العملي لتصل إلى فلسفة عميقة في التعايش والسلام، قوامها الاعتراف بالآخر وحقه في الوجود والاختلاف، وهنا تتجلى إستراتيجيّة التنازل الذكي كطريق للتّعايش السلميّ، إذ إنّه ليس كل تنازل استسلاماً، ولا كلّ صلابة حكمة، فالقائد البصير هو من يعرف متى يتنازل في تحرّكاته، ليجني مكاسب في إستراتيجيّاته، كما فعل النبي ﷺ حين قبل الصلح بشروط بدت مجحفة ظاهرياً، إلاّ أنّها قد مهدت لفتح مكة فتحاً عظيماً لاحقاً في السنة الثامنة للهجرة.

فهنا تجسيد عميق لكيفيّة تحوّل "امحها يا علي" من موقف طارئ إلى منهج حياة يومي، من خلال النّظر للإنسان بوصفه كائناً مرناً قادراً على التّكيّف والتّغيير والتّنازل دون فقدان هويته وقيمه الأساسيّة، لا كونه آلة صمّاء تتحرك ببرمجة ثابتة.

ولعمق ما تحمله هذه الفلسفة الإنسانيّة في " امحها يا علي" من مضامين مجتمعيّة وقيميّة، فقد أمكن تحويلها إلى فلسفة قيادية معاصرة في مجالات حياتيّة شتّى كمجال العمل والإدارة، فالقائد الناجح هو من يعرف متى يتنازل عن رأيه لصالح آراء فريقه، ومتى يصر على موقفه حين يتعلق الأمر بقيم أساسية أو مبادئ جوهرية،

ARAB-PSF.COM

إذ يمكنه بناء بيئة عمل تقوم على التفاهم والتعاون بدلاً من التنافس السلبي والصراع على المناصب والصلاحيات من خلال تبنّيه لها بأبسط الأمور من اجتماعات عصف ذهنيّ يتمّ فيها احترام الآراء كافّة، والخروج بقرارات تشاركية تأخذ من كلّ رأي أفضل ما فيه، وصولاً إلى قيادة تعترف بأخطائها وتصححها دون تردد.

وعلى الصعيد السياسي والدولي، تمثّل "امحها يا علي" نهجاً متوازناً في إدارة النزاعات، بإيمانها بثقافة سلميّة لا تؤمن بالهيمنة ولا الاستسلام، فالدبلوماسية الحقيقيّة هنا تكمن في الموازنة بين التمسك بالمصالح الوطنيّة والتنازل الذكي في القضايا الفرعية، لذا فإنّه من الممكن بسهولة صياغة مقاربة جديدة للنزاعات الإقليمية والدولية، قائمة على مبدأ "التنازلات المتبادلة" كطريق للسلام العالمي، فلا سلام ولا حل مستدام دون اعتراف وتنازلات متبادلة.

وفي البعد المجتمعيّ والقيميّ تعتبر فلسفة "امحها يا علي" نموذجاً مثالياً لغرس قيم التسامح والمرونة في الأجيال الناشئة، وذلك من خلال التربية بالقدوة، ورواية القصص الملهمة، وتعزيز مفهوم المصلحة الجماعية، وتنمية الذكاء العاطفي بتدريب الأطفال على فهم مشاعرهم ومشاعر الآخرين، والتحكم في ردود أفعالهم الانفعالية، وتعليمهم أنّ القدرة على ضبط النفس والتحكم في الغضب هي من علامات القوة وليس الضعف، وتصميم مجموعة من الأنشطة العملية التي تساعد الأطفال على اكتساب مهارات التفاوض والتنازل الإيجابي، كلعب الأدوار، ومشاريع تتضمن ضرورة التوصّل لحلّ وسطي يرضي الأطراف كافّة.

وهنا يظهر دور المؤسسات التعليمية في بناء شخصيات قادرة على التعايش والتسامح، وذلك من خلال دمج فلسفة "امحها يا علي" في المناهج الدراسية ليتم تناول هذه القيم بشكل منهجي ومتدرج، وإنشاء مجالس طلابية للوساطة والصلح وحل النزاعات، وتنفيذ برامج تدريبية للمعلمين لتبني أساليب تربوية تعزز قيم التسامح والتعايش، وتجنب أساليب التنافس السلبي أو التعصب للرأي، وعقد شراكات مع الأسرة والمجتمع لتعزيز ثقافة التسامح والتعايش في البيئة المحيطة بالطفل، والقيام بأنشطة لاصفية تستهدف تعزيز روح التعاون والعمل الجماعي كالمشاريع التطوعية المجتمعية.

وختام القول، بمقولة كانت وما زالت بداية لكلّ مجتمع مستقرّ،

إذ إنّ "امحها يا عليّ" تتضمّن فلسفة حياة متكاملة تحمل في طياتها دروساً عميقة في فنّ التعامل مع الذات والآخر، وتجسّد النظرة المستقبليّة البعيدة التي تتجاوز المكاسب الآنية لتحقيق أهداف إستراتيجيّة أكبر، وتعكس فهماً عميقاً للنفس البشرية وآليّات التأثير فيها، ففي عالم مليء بالصراعات والنزاعات، نحن بحاجة لاستلهام روح "امحها يا علي" في تعاملاتنا الفردية والمجتمعية والدولية، وبحاجة لفهم أنّ التنازل في الوقت المناسب قد يكون قوة وليس ضعفاً، وأنّ المرونة في المواقف قد تكون هي الطريق الأقصر لتحقيق الأهداف الكبرى.

فكما استطاع موقف "امحها يا علي" أنْ يؤسّس لصلح تاريخي غيّر مجرى الأحداث، فإنّ تبنّي هذه الفلسفة في حياتنا المعاصرة قد يكون مفتاحاً لحلّ كثير من المشكلات والصراعات التي نعاني منها على المستويين الفرديّ والمجتمعيّ، لما فيها من تجاوز عن الصغائر للحفاظ على العظائم التي كانت تنتظر الأمة.. وتحوّل بالمسار من الجدل الهادر للأوقات الثمينة إلى الانشغال بما ينبني عليه من الأعمال القويمة.. وفيها خسارة لحظيّة لأجل مغانم إستراتيجيّة ....

ففي "امحها ياعلي" حاجة ملحّة لتكون في حياتنا...

فما أحوج الزوج وزوجته لها..

وما أحوج الوالد والولد لها..

وما أحوج الأخ والأخت لها..

وما أحوج الصديق وصديقه لها...

وما أحوجنا كمجتمع بأكمله لها... لما فيها من التماس الأعذار الذي هو طريق لا يسير فيه إلاّ الأخيار، وما يشكّله من قاعدة راقية لهدم الماضي، وقاعدة أساسيّة وضرورية لبناء الحاضر ، والانطلاق نحو رؤية المستقبل....امحها ياعلي..أساس الراحة النفسية وراحة الروح ..